﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَٰلِمِينَ ٥٤﴾

[الأنفال: 54]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

العلاقة بين أسباب تغيّر النّعم، وما حلّ بآل فرعون والّذين من قبلهم من هلاك

لمّا بيَّن ما أنزله بأهل بدر منَ الكفّار عاجِلًا وآجِلًا، أتْبعه بأنْ بيَّن أنَّ هذه طريقتُه وسنّتُه ودأبُه في الكلِّ فقال: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ﴾[1]، فهو استئنافٌ مَسوقٌ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرِهم لا بشيءٍ آخرَ من جهة غيرِهم، وذلك بتشبيه حالهم بحال المعروفين بالإهلاك بسبب جرائمِهم؛ لزيادة تقبيحِ حالِهم، وللتّنبيه على أنّ ذلك سنّةٌ مُطَّرِدةٌ فيما بين الأمم المهلَكةِ؛ أي: شأنهم الّذي استمرّوا عليه ممّا فعلوا وفُعِل بهم منَ الأخذ، كدأب آلِ فرعونَ المشهورين بقباحةِ الأعمالِ وفظاعةِ العذابِ والنّكالِ[2].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿كَدَأۡبِ﴾: الدّال، والهمزة، والباء أصلٌ واحدٌ يدلُّ على ملازمةٍ ودوامٍ. والدّأبُ: العادةُ المستمرّةُ دائمًا على حالة والشَّأنُ، ودأبَ فلانٌ في عمله؛ أي: جدَّ وتعِب. وأصله: المبالغة في السَّير، والدّأبُ في الآية: العادةُ والشّأنُ. ودَأبُ آلِ فِرعَونَ؛ أي: شأنُهم وعادتُهم الّتي يستمرّون عليها[3]. ويرى الأزهريّ أنّ معنى "دَأبَ هَهُنا اجتهادُهم في كفرهم وتظاهرُهم على النَّبيّ ﷺ كتظاهر آلِ فِرعَونَ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 15/495، وابن عادل، اللّباب في علوم الكتاب: 9/543.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/103.
(3) الخليل، العين، والجوهريّ، الصّحاح، وابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (دأب).

على موسى ﷺ"[1]. ودأبُهم عند أهل التّفسيرِ عادتُهم وعملُهم الّذي دأبوا فيه؛ أي: داوموا عليه، وواظبوا، وكَفَروا[2].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

عـقـوبـاتُ السّابقين من آل فرعون الظّالمين، عـظـاتٌ وعـبر للّاحقين

إنّ شأنَ تكذيبِ هؤلاء المشركين الّذين حاربوك يا محمّد، كشأن تكذيبِ آلِ فرعونَ، ومَن تقدّمهم منَ الأقوام السّابقةِ، كقوم نوحٍ وقوم هودٍ، فكانت نتيجةُ ذلك أن أهلكَهم اللّهُ بسبب ما ارتكبوه من ذنوب، وبسبب استعمالهم النِّعَمَ في غير ما خُلِقَت له، وكلٌّ منَ الأقوام المذكورين، ومَن على شاكلتهم في الكفر والضّلال كانوا ظالمين لأنفُسِهم بكفرهم، ولأنبيائهم بسبب محاربتهم لهم، وإعراضهم عنهم، مع أنّ الأنبياءَ ما جاءوا إلّا لهدايتهم[3].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصلِ:

مـا حـلَّ بـآل فـرعـون مـن نـقـمـةٍ، كـان بـسـبـب الـكـفـر والظّلم والغرور

الجملةُ استئنافٌ سيق؛ لبيان أنّ ما حلَّ بهم منَ العذاب بسبب كفرِهم لا بشيءٍ آخرَ مِن جهة غيرِهم، ولتقرير ما سيق له الاستئنافُ الأوّلُ، ويصحُّ تقديرُ كونِها اعْتِراضًا[4].

بلاغةُ الإيجازِ بالحذف:

وضـوحُ المعنى مـظـنّـةُ الإيـجـاز بـالاسـتـغـنـاء بالمذكور

قوله: ﴿كَدَأْبِ﴾ خبر لمبتدأ محذوف، تقديره: (دأبُ هؤلاء مثل دأب آلِ فرعونَ)، وهو حذفٌ تابعٌ للاستعمال في مثل هذه الحالات، فإنّ العربَ إذا تحدّثوا بشيءٍ، ثمّ جاؤوا بخبرٍ دون مبتدأ، عُلِمَ أنّ المبتدأ محذوفٌ، ويُقدَّرُ بحسب الكلام[5].

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (دأب).
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229.
(3) طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 126 - 129/6.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.
(5) الزّمخشريّ، الكشّاف: 2/229، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.

وجوّزوا في (دأب) أن يكونَ في محلّ النّصبِ على أنّه نعتٌ لمصدرٍ محذوفٍ؛ أي: حتّى يغيّروا ما بأنفسهم تَغْييرًا كائِنًا كدأبِ آلِ فرعونَ؛ أي: كتغييرهم، على أنّ دَأْبَهُم عبارةٌ عمّا فعلوه فقط كما هو الأنسبُ بمفهوم الدّأبِ[1].

بلاغةُ التّشبيهِ في السّياق:

التّشبيهُ الأوّلُ لمشابهتهم للسّابقين، والثّاني لبيان سُنّةِ التّغييرِ الكونيّ والاجتماعيّ

شبّه دأبَهم بدأب المذكورين، لكنْ لا بطريقِ التّكريرِ المحضِ، بل بتغيير العُنوانِ، وجعلِ الدّأبِ في الجانبين عبارةً عمّا يلازمُ معناه الأوّلَ من تغيير الحالِ وتغييرِ النّعمة، أخذاً ممّا نطقَ به قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً﴾ الآية؛ أي: دأبُ هؤلاء وشأنُهم الّذي هو عبارةٌ عنِ التّغييرَين المذكورين، كدأب أولئِك حيث غيّروا حالَهم فغيّر اللّهُ تعالى نعمتَه عليهم، فقولُه تعالى: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فعلوه من تغييرهم لحالهم، وقوله تعالى: ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ تفسيرٌ لدأبهم الّذي فُعِلَ بهم من تغييره تعالى ما بهم من نعمته، وأمّا دأبُ قريشٍ فمستفادٌ منه بحكم التّشبيه، فللهِ درُّ شأنِ التّنزيلِ حيث اكتَفى في كلٍّ منَ التّشبيهين بتفسير أحدِ الطّرفين[2]، وهذا رأيُ الطّيبيِّ فالتّشبيهُ الثّاني عنده مُفصّلٌ لما أُبهمَ منَ التّشبيه الأوّلِ، وليس تشبيهًا جديدًا، قال في حاشيته على الكشّاف: فعُلِمَ من هذه الآية: أنّ تلك النّعمةَ هي نعمةُ الآياتِ المنزّلةِ، وأنّ ذلك الكفرانَ تكذيبُها وجحودُ الحقّ، وقوله: ﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾ مشتملٌ لجميع أنواعِ التّعذيبِ، وقوله: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ نصٌّ على تعيين العذابِ.

وزعم بعضُهم أنّ هذا ليس بتكرير؛ لأنّ معنى الأوّل حالُ هؤلاء كحال آلِ فرعونَ في الكفر والتّكذيب، فأخذهم بالعذاب، ومعنى

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/105.

الثّاني حالُ هؤلاء كحال آلِ فرعونَ في تغييرهم النّعم، وتغيير الله حالهم بسبب ذلك التّغيير، وهو أنّه أغرقَهم، بدليل ما تقدّم عليه، وهو قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا﴾ الآية، والنّظمُ يأبى هذا القولَ؛ لأنّ وجهَ التّشبيهِ في التّشبيهِ الأوّلِ هو قوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۚ﴾، فشبّهَ حالَ كفّارِ قريشٍ بحال فرعونَ ومَن قبله، والوجه الاخر للتّشبيه الكفرُ المُرتّبُ عليه العقابُ، فكذلك ينبغي أن يكونَ الوجهُ في التّشبيه الثّاني هو قوله: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمۡ فَأَهۡلَكۡنَٰهُم بِذُنُوبِهِمۡ﴾، لأنّه مثلُه[1].

وبعضُ المفسّرين رأى أنّ التّشبيهين ليسا من بابٍ واحدٍ، مثل صاحب المحرّر الوجيز حيث يقول: "وهذا التّكريرُ هو لمعنًى ليس للأوّلِ، إذِ الأوّلُ دأبُ في أنْ هلكوا لمّا كفروا، وهذا الثّاني دَأْبُ في أنْ لم تُغَيَّرْ نعمَتُهم حتّى غيَّروا ما بأنفسهم[2]"، وكذلك القاضي البيضاويّ حيث قال: "الأوّل: تشبيهُ الكفرِ والأخذ، والثّاني: تشبيهُ التّغييرِ في النّعمة بسبب تغييرهم ما بأنفسهم"[3]، والّذي يبدو أنّ التّشبيهين، وإن ظهرا لأوّل وهلةٍ مكرّرَيْنِ إلّا أنّ سياقَ كلِّ تشبيهٍ ووجهَ الشّبهِ فيهما مُختلفٌ تمامًا، فالتّشبيهُ الأوّلُ جاء في سياق مشابهتهم للأقوام السّابقة في أنّ ما أصابَهم كان بسبب كفرهم وعنادهم، وليس بسبب ظلمِ الله تعالى لهم، فوجهُ الشّبه بين مشركي مكّة ومَن سبقهم هو في ظلمهم أنفسهم بسبب ما قدّمته أيديهم، لا بسبب شيءٍ آخر، فاستحقّوا على إثر هذا أن يؤاخذوا بالعقوبة بسبب هذه الذّنوب، وسياقُ التّشبيه الثّاني يتعلّقُ بسنّةِ التّغييرِ الكونيِّ الّتي ربطَها الحقُّ ﷻ بسنّة التّغيير الاجتماعيّ، فإنّ صلاحَ الكونِ منوطٌ بصلاح النّفوس، وهذا ما ذكره الحقُّ في مواضعَ كثيرةٍ، يقول تعالى: ﴿وَأَلَّوِ ٱسۡتَقَٰمُواْ عَلَى ٱلطَّرِيقَةِ لَأَسۡقَيۡنَٰهُم مَّآءً غَدَقٗا ١٦﴾ [الجنّ: 16]، وقال: ﴿وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ٩٦﴾ [الأعراف: 96]، ووجهُ الشّبهِ هنا بينهم وبين مَن سبقوهم هو في تكذيبهم بهذه السّنن الإلهيّة والقوانينِ الكَوْنيّة، فاستحقّوا على إثرها الإهلاكَ والإغراقَ، وكأنّه يقول لهم: إنّ مَن يُكذِّبُ بهذه السّنن تنقلبُ عليه قوانينُها، فبدلًا من أن تكونَ قوانينُ الكون مسخّرةً لتكون سببًا في نجاتهم واستقرارهم في الأرض، تصبح سببًا في إهلاكهم وإغراقهم والله أعلم.

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 7/134.

(2) ابن عطيّة، المحرّر الوجيز، ص: 809.

(3) البيضاويّ، حاشية محيي الدّين بن شيخ زادة للقونويّ: 4/406 - 407.

سرُّ التّعبيرِ بالآل دون غيره:

أوثـر لـفـظُ الآل ليشملَ الأتباعَ كلَّهم

عبّر بـ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾؛ ليشملَ ملأَهُ، وشرفاءَ قومه، وكبراءَهم، وجميعَ أتباعه، ومَن آلَ إليه في دينٍ، أو مَذهَبٍ، أو نسبٍ؛ لأنّ الآلَ لا تُطلَقُ إلّا على الأتباعِ كلِّهم، مع إيمانهم بالمتبوع، واتّباع منهجِه، وشريعتِه، وسيرتِه[1].

فائدةُ تخصيصِ ذكرِ آلِ فرعونَ مِن بينهم:

كـفـرُ فـرعـون وآلـه، هو أشنعُ الكفر وأفظعُه

وجهُ تخصيص ذِكرِ ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾ دون غيرهم، وذِكرِ الّذي أُهلِكوا به، وهو إغراقهم؛ لأنّه انضمّ إلى كفرهم دعوى الإلهيّةِ والرّبوبيّةِ لغير الله تعالى، فكان ذلك أشنعَ الكفر وأفظعَه[2].

آلُ فرعون أقربُ إلى كفّار قريشٍ مـن غـيرهـم، وفيه تذكيرٌ لأهل الكتاب منهم

خُصّوا بالذّكر؛ لكونهم أقربَ إلى هَؤُلاءِ الكفّار من غيرهم ممّن كان قبلهم، ألا ترى أنّه قال: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْكُمْ رَسُولًا شَٰهِدًا عَلَيْكُمْ كَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ [المزّمّل: 15]، أو أن يُذكرَ أهلُ الكتاب منهم؛ لكونهم كانوا ينكرون بعثَ الرُّسلِ من غير ملّتِهم، ويقولون: إنّ محمّدًا أمّيٌّ بُعِثَ إلى الأمّيّين مثلِه، فأجاب: إنَّ موسى لم يكُنْ منَ القبط، ومع ذلك بُعِثَ رسولًا إليهم؛ وعليه فإنّ مُحَمَّدًا، وإن كان أمّيًّا، فإنّه بُعِثَ إلى الأمّيّين وغيرهم[3].

في ذكـر هـلاكِ أشـهـر المـلـوكِ الظّلمةِ طغيانًا عِـبرةٌ، ورهبةٌ، ورِدعٌ

وخُصَّ آلُ فرعونَ بذكر هلاكهم؛ لأنّ فرعونَ كان أشهرَ ملوكِ عصرِهم، وأشدَّهم طغيانًا عن رعيّتِه، وأرهبَهم، وأظلمَهم، فذِكْرُهُ للعرب، وقد أهلكه اللّهُ تعالى بالغرقِ، أرْهبُ لنفوسهم، وأشَدُّ على غرورهم، وأرْدعُ لطغيانهم، وفوق ذلك أغرقُه اللّهُ تعالى بأمرٍ خارقٍ للعادةِ لم يكن في حسبانهم، إذِ انفلقَ البحرُ فكان كلُّ فرقٍ كالطّودِ العظيمِ، ثمّ انطبقَ عليهم بما لم يعهدوا، ولم يحسبوا،

(1) الرّاغب، المفردات: (آل)، والسّمين، عمدة الحفّاظ: 1/140، ورشيد رضا، تفسير المنار: 9/74 - 75.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 5/338.
(3) الماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241.

فهو يُذكِّرُ المشركين بأنّ اللهَ تعالى يأتيهم من حيثُ لم يحتسبوا، وأنّه سيهزمُهم من حيثُ لا يشعرون، بل يحسبون في أنفسهم أنّهم الغالبون، ويوسوسُ لهم الشّيطانُ بأنّهم لا غالبَ لهم[1].

الذّكرُ في مواضع الخيبةِ إذلالٌ

وفضلًا عمّا ذُكِرَ فإنّ موردَ الذّكرِ في مَواطنِ الخيبةِ، والعقوبةِ، والعذابِ، والإهلاكِ إذلالٌ ومهانةٌ يناسبه التّصريحُ، فعقابُ هؤلاء الكفّار بأنواع العقوبةِ لِما ارتكبوه من تنوّع الزّلّاتِ، كما تنوّعت من آلِ فرعونَ الذّنوبُ فنوّع لهم العقوبةَ[2].

علّةُ العطفِ بحرف (الواو):

اجتمعَ آلُ فرعونَ ومَن قبلهم في تكذيب آياتِ اللهِ

وصلَ بين جملتي ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾، و(الّذين من قبلهم) بالعاطف (الواو) الدّالّة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركة في الحكم، دون (الفاء)، أو (ثمّ)؛ للدّلالة على مُطلَقِ الجمعِ مع المشاركةِ في الحكم من غير اقتضاءِ ترتيبٍ، ممّا يسوّغُ أن يكونَ المتأخّرُ ذكرًا مُتقدِّمًا معنى، والعكس بالعكس كذلك.

وجهُ تشديدِ فعل التّكذيب، وإسنادِه إلى واو الجماعة:

الإصرارُ على الكذب وممارسته؛ أودى بهم إلى عاقبة مُزْرِيَةٍ

بالغَ في وصف كذبهم بالتّعبير عنِ الفعل مُشَدَّدًا، مُصاغًا بهيأة الماضي الدّالّ على الوقوع، والتّحقّق، والإصرارُ على شنيع فعلِ التّكذيب للخالق غيٌّ وضلالٌ يستحقُّ العقابَ، ويستوجبُ الإهلاكَ، ودلَّت واو الجماعة على اجتماعهم على الكذب، وشموله جميع المذكورين. قال تعالى: ﴿فَأَغْرَقْنَٰهُ وَمَن مَّعَهُۥ جَمِيعًا ﴿١٠٣﴾﴾ [الإسراء: 103]، فالضّميرُ في ﴿كَذَّبُوا۟﴾، وكذلك في ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم﴾، عائدٌ على المشبّه والمشبّه به في ﴿كَدَأْبِ﴾؛ ليشملَ كلَّ المُكَذِّبين السّابقين.

سرُّ جمعِ لفظ (آيات)، في السّياق الحكيم:

تعدّدُ الآياتِ قطعٌ للعذر، ومن أنذر فقد أعذر

جمعُ الآياتِ في قوله: ﴿بِـَٔايَٰتِ رَبِّهِمْ﴾ دليلُ تعدّدِها، وتنوّعِها،

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.
(2) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.

رحمةً منَ اللّه، وقطعًا للعذر، وفي ذلك " زيادةُ دلالةٍ على كفران النّعم وجحود الحقّ"[1].

فائدةُ تعريفِ الآياتِ بالإضافة:

عِـظَـمُ الآيـاتِ، بعِظَمِ صانعها

تعريفُ الآيات بإضافتها إلى لفظ الرّبوبيّةِ دليلُ عظمتِها، وصدقِها، ونفعِها؛ بوصفه مُنعمًا بها عليهم، راعيًا لمصالحهم من حيث إنّه هو المُرَبّي لهم بنعمه، ولهذا ذكرَ فيها اسمَ الرّبِّ مضافًا إليهم بدلَ اسمِ الجلالةِ هناك - فيدخُلُ في ذلك تكذيبُ الرّسلِ ومعاندتُهم وإيذاؤُهم وكفرُ النّعم المُتعلِّقة ببعثهم والسّابقةِ عليها، وفي الجزاء على ذلك بعذاب الدّنيا[2]. ومن فوائد نسبةِ الآياتِ المُكذَّبةِ إلى ربّهم: بيانُ فظاعةِ التّكذيبِ؛ لأنّهم كذّبوا بآيات ربِّهم الّذي خلقَهُم، وكوَّنَهُم، وربّاهُم، وهو العليمُ بما يناسبُهُم من أدلّةٍ، وأنّ هذه الآياتِ منَ المتفضَّلِ عليهم بنعمة الوجودِ والتّنميةِ، وإعطائِهم القوّةَ الّتي طغَوا بها[3].

سرُّ إيثارِ وصفِ الرّبوبيّة:

لا شناعةَ لفعل أشدُّ منَ الاجتراء على الخالق في موضع الشّكر

ذكرَ وصفَ الرّبوبيّة هنا دون الاسم العلم لزيادة تفظيع تكذيبهم؛ لأنّ الاجتراءَ على اللّه مع ملاحظة كونه ربًّا للمجترئ، يزيدُ جراءَته قبحًا؛ لإشعاره بأنّها جراءةٌ في موضعِ الشّكرِ؛ لأنّ الرّبَّ يستحقُّ الشّكرَ[4].

وفي مقام الرّبوبيّةِ مزيدٌ منَ النّعي عليهم بأنّ تكذيبَهم صدرَ بحقِّ مَن ربّاهم، ودلائلُ تربيته وإحسانه كثيرةٌ مُتَتاليَةٌ، فقابلوها بكفران النّعمةِ وجحود الحقِّ فاستحقّوا الإهلاكَ والإغراقَ[5].

(1) الطّيّبيّ، فتوح الغيب: 7/133.
(2) رضا، تفسير المنار: 10/41.
(3) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338.

دلالةُ (الفاءِ) العاطفة في السّياق:

تضافرُ الذّنوب، مظنّةُ العقاب من عـلّام الغيوب

الفاءُ في قوله سبحانه: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ عاطفةٌ؛ لربط ما بعدها على ما قبلها؛ أي أنّه بسبب تكذيبِهم أهلكهم اللّهُ تعالى بسبب هذه عقابًا منَ اللّه تعالى، ولأنّ الذّنوبَ المتضافرةَ يترتّبُ عليها الهلاكُ لا محالة[1]، وعملُها التّعقيبُ والتّرتيبُ أفادَ سرعةَ وقوعِ الأخذِ بهم.

معنى حرف (الباء) في شبه الجملة ﴿بِذُنُوبِهِمْ﴾:

التّلبّس بالذّنوب، سببُ أخذ كلّ عاصٍ، بالعقاب المطلوب

الباء لتأكيد ما أفادته الفاءُ منَ السّببيّةِ، مع الإشارةِ إلى أنَّ لهم مع كفرهم ذنوبًا أُخَرَ لها دخلٌ في استتباع العقابِ، ويجوزُ أن يكونَ المرادُ بذنوبهم معاصيَهم المتفرِّعةَ على كفرهم، فتكونُ الباءُ للملابسة؛ أي: فأخذهم مُلتبِسين بذنوبهم، غيرَ تائبين عَنْها، فدأبُهم مجموعُ ما فعلوا وفُعِل بهم لا ما فعلوه فقط[2].

وجهُ إيثارِ لفظِ الإهلاكِ دون الأخذ:

مآلُ الأخذ الإهلاكُ، وليس بعد وقوعه من ادّراك

عبّرَ بالإهلاك عوضًا عن لفظ (الأخذ) المُتقدِّم ذكرُهُ في الآية [52]؛ ليفسّرَ الأخذَ بأنّه آلَ إلى الإهلاك، وزيدَ الإهلاك بيانًا بالنّسبة إلى آلِ فرعونَ بأنّه إهلاكُ الغرقِ[3].

براعةُ التّفنّنِ في الأسلوب:

الكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك

وخولِف بين الجملتين بذكر التّكذيبِ هنا بعد ذكرِ الكفرِ في الآية [52] تفنّنًا في الأسلوب، وزيادةً للفائدة، فالكفرُ والتّكذيبُ سببان للأخذ والإهلاك[4].

الحكمةُ في تكرار قوله: ﴿ءَالِ فِرْعَوْنَ﴾:

فائدةُ التّكرارِ أنّه تعالى ذكرَ في الآية الأولى الأخذَ بالذّنوب

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 3/104.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

والتّعذيب، ولم يبيّن ما كان ذلك العذاب، فبيّنَ في الآية الأخرى أنّ ذلك العذابَ هو الإهلاكُ والاستئصالُ؛ إذ قال: ﴿فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ﴾؛ فالكلامُ الثّاني جرى مَجرَى التّفصيلِ للكلامِ الأوّلِ؛ لأنّ الآيةَ الأولى فيها ذكرُ أخذِهم، وفي الآية الثّانيةِ ذكرُ إغراقِهم، فهذه تفسيرٌ للأولى[1]، وعلّةُ التّفصيلِ أنّه مقامُ ذمٍّ وهو كالمدح، والبلاغةُ فيه الإطنابُ[2]، ولقصد التّأكيدِ، والتّسميعِ، وتقريرِ الإنذارِ والتّهديدِ[3]، فقد ذكر في الآية الأولى أنّهم كفروا بآيات الله، وفي الآية الثّانية أنّهم كذّبوا بآيات ربّهم؛ ففي الآية الأولى إشارةٌ إلى أنّهم أنكروا آياتِ اللهِ وجحدوها، وفي الآية الثّانيةِ إشارةٌ إلى أنّهم كذّبوا بها مع جحودِهم لها وكفرِهم بها، وفي ذلك زيادةٌ في الدّلالة على كفران النّعمِ، وجحودِ الحقِّ، وفي ذكر الإغراقِ بيانٌ للأخذ بالذّنوب[4]؛ فالأولى لسببيّة الكفر، والثّانية لسببيّة التّغيير[5].

في ذكر الإغراق بيانٌ للأخذ بالذّنوب الّتي تغرق القلب قبل البدن

وثمّة فائدةٌ أخرى في تكرار ذكرهم؛ وهي تأكيدُ الإعلام بأنّه لا يُهمِلُ المُكلَّفُ على الدّوام، وإن أمْهَلَهُ حينًا ودهرًا[6].

بلاغةُ الالتفاتِ، منَ الغيبة إلى الحضور:

في الكلام التفاتٌ منَ الغيب إلى الحاضر، والإسنادُ إلى الله تعالى بإسناد الإهلاكِ إليه ﷺ لبيان تأكّدِ الوقوعِ؛ لأنّه منَ الله تعالى القاهرِ فوقَ عبادِه العزيزِ الحكيمِ، ولتربية المهابةِ في النّفس، وللتّذكير بالرّهبة منَ الله تعالى[7].

حكمُ الله واقعٌ، والتّذكيرُ بالرّهبة منه واجبٌ

(1) الخازن، لباب التّأويل: 3/43، والماتريديّ، تأويلات أهل السّنّة: 5/241 - 242.
(2) الصّاويّ، حاشية على تفسير الجلالين، ص: 708.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.
(4) الخازن، لباب التّأويل: 3/43.
(5) الشّربينيّ، السّراج المنير: 1/577.
(6) القشيريّ، لطائف الإشارات: 1/633.
(7) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3165.

وفي الالتفاتِ إلى نونِ العظمةِ في (أهلكنا) جَرْيٌ على سنن الكبرياءِ؛ لتهويلِ الخَطبِ[1].

بلاغةُ عطفِ الجُمل، وأثره في السّياق:

الإشعار بالعطف والاتّساق، كمالُ هولِ الإغراقِ

عطفُ قوله تعالى: ﴿وَأَغۡرَقۡنَآ ءَالَ فِرۡعَوۡنَۚ﴾ على ﴿فَأَهۡلَكۡنَٰهُم﴾ مع اندراجه تحته؛ للإيذان بكمالِ هولِ الإغراقِ وفظاعتِه كعطف جبريلَ عليه السلام على الملائكة[2]. وهو من عطف الخاصِّ على العامّ للإشادة بجرائمِ آلِ فرعونَ حتّى كأنّها مغايرةٌ لجرائم كلِّ الأقوامِ الّذين سبقوهم.

بلاغةُ التّشابه اللّفظيّ بين آية آل عمران، وآيتي الأنفال:

علّةُ اختلافِ النّظمِ بين الآيات الثّلاث، اختلافُ السّياق الّذي وردَت فيه كلُّ آيةٍ

قد شابه نظمُ هاتين الآيتين هنا في الأنفال نظمَ آيةٍ أخرى في سورة آل عمران، قال تعالى: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11].

وقد حاول صاحبُ ملاك التّأويل أن يعلّلَ بعضَ أسبابِ الاختلافِ في نظم الآياتِ الثّلاثِ بما يأتي: آية آل عمران والآية [54] منَ الأنفال ذُكِرَ فيهما التّكذيبُ، ففي سورة آل عمران تقدّم قبلَها الحديثُ عن تنزيل الكتبِ الثّلاثةِ، والإشارةُ إلى ما تضمّنَتهُ منَ الهُدى والفرقان، فالتّكذيبُ ناسبَها، وفي الأنفال جاء التّكذيبُ؛ لأنّه سبقَها بآيتين الحديثُ عنِ الكفر، فعدل لثقل التّكرّرِ مع القرب، وليحصلَ وسمُهُم بالكفر والتّكذيب، وجيءَ بالاسم الظّاهر (اللّه) في الآية [52] منَ الأنفال فقال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ لتقدُّم ذكرِ الملائكةِ في قوله: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذۡ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ﴾ بنسبةِ الفعلِ للملائكة، وتقدّم أيضًا: ﴿وَإِذۡ زَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ أَعۡمَٰلَهُمۡ﴾، بينما في آل عمران لم يتقدّمها ذكرُ فعلٍ لغير اللّه، ولا نسبةُ شيءٍ لسواه، فجيءَ بقوله:

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29.

(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 4/29، والآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.

﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِنَا﴾ [آل عمران: 11] على طريقة الالتفات، وفي الموضعِ الأوّلِ منَ الأنفال: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ ليُعلمَ أنّ الأمرَ له ﷻ، وأنّ الملائكةَ مسخّرون بأمره وفعلُهم مِن خلقِه، وتَزْيينَ الشّياطين بقدره، وقيل في الثّانية: ﴿كَذَّبُواْ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾؛ ليجري مع ما تقدّمه مُتّصلًا به من قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ﴾، فذكر ابتداءَه بالنّعم، فناسبه ذكرُ ملكيّته سبحانَه لهم بقوله: ﴿بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ﴾، وأمّا الأخذُ بالذّنوب في آل عمران والآيةِ الأولى منَ الأنفال دون الموضع الثّاني منَ الأنفال: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾، فإنّه جاء هكذا دفعًا للتّكرار؛ لأنّه سبقها الحديثُ عنِ الأخذ بالذّنوب، وأمّا تباينُ الحديث عن شدّة العقابِ ففي آل عمران: ﴿وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿١١﴾﴾ [آل عمران: 11]؛ لأنّه لم يسبقها ما سبق آيةَ الأنفال الأولى منَ الحديث عن قول الشّيطان: ﴿لَا غَالِبَ لَكُمُ ٱلْيَوْمَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَإِنِّى جَارٌ لَّكُمْ﴾؛ فقوبِل قولُه المُضمَحلُ بإسناد القوّة لله ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾؛ ولذلك فصّل العقابَ في ثانية الأنفال فقال: ﴿فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ ۚ وَكُلٌّ كَانُواْ ظَـٰلِمِينَ﴾، وهو آخرُ موضعٍ وقع التّذكيرُ فيه بعبادة آلِ فرعونَ في تكذيبهم، وأخذِهم بكفرهم[1].

ولا شكّ أنّ كثيرًا من توجيهاته سديدٌ مقبولٌ، وبعضها لا يخلو من تكلّفٍ، فانفرادُ الآيةِ الأولى منَ الأنفال بقوله: ﴿كَفَرُواْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾ سبقها الحديثُ عن توفّي الملائكةِ للّذين كفروا، وسبقها الحديثُ كثيرًا عن فئة الكافرين في مقابل الفئة المؤمنة، فناسب أن يسِمَهم بالكفر، وبعدها بآيتين يبيّنُ نوعَ هذا الكفر، وأنّه كان تكذيبيًّا، ولذلك خصّص في الآية الثّانيةِ الأخذَ بالإهلاك أيضًا.

يقول ابنُ عاشور: "فأمّا المُخالَفَةُ بين ﴿كَذَّبُواْ﴾ [آل عمران: 11] و﴿كَفَرُواْ﴾؛ فلأنّ قَومَ فِرعَونَ والّذينَ مِن قَبلِهم شارَكوا المُشرِكينَ في الكُفرِ باللّه وتَكذيبِ رُسُلِه، وفي جَحدِ دَلالَةِ الآياتِ على الوَحدانيَّةِ وعلى صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، فذُكِروا هنا ابتِداءً بالأفظَعِ مِنَ الأمرَينِ، فعُبِّرَ بالكفر بالآياتِ عَن جحد الآياتِ الدّالَّة على وحدانيَّةِ اللّه تعالى؛ لأنّ الكُفرَ أصرَحُ في إنكارِ صِفاتِ اللّهِ تعالى. وقَد عُقِّبَتْ هذه الآيَةُ بالّتي بَعدَها، فذُكِرَ في الّتي بَعدَها التَّكذيبُ

(1) ابن الزّبير، ملاك التّأويل: 1/79.

بالآياتِ؛ أي: التَّكذيبُ بآياتِ صِدقِ الرَّسولِ ﷺ، وجَحدُ الآياتِ الدّالَّةِ على صِدقِه. فأمّا في سورَةِ آلِ عِمرانَ [11] فقَد ذُكِرَ تَكذيبُهُم بالآياتِ؛ أي: الدّالَّة على صِدقِ الرَّسولِ ﷺ؛ لأنّ التَّكذيبَ مُتَبادِرٌ في مَعنَى تَكذيبِ المُخبِر، لِوُقوعِ ذلك عَقِبَ ذِكرِ تَنزيلِ القُرآنِ، وتَصديقِ مَن صَدَّقَ به، وإلحادِ مَن قَصَدَ الفِتنَةَ بمُتَشابهِه، فعُبِّرَ عَنِ الّذينَ شابَهوهُم في تَكذيبِ رَسولِهم بوَصفِ التَّكذيبِ. فأمّا الإظهارُ هُنا في مقامِ الإضمارِ فاقتَضاهُ أنَّ الكُفرَ كُفرٌ بما يَرجِعُ إلى صِفاتِ اللّهِ، فأُضيفَتِ الآياتُ إلى اسمِ الجَلالَةِ؛ ليَدُلَّ على الذّاتِ بعُنوانِ الإلَهِ الحَقِّ، وهو الوَحدانيَّةُ"[1].

غرضُ التّنكيرِ في لفظ ﴿وَكُلٌّ﴾، من الآية الكريمة:

المرادُ بـ﴿وَكُلٌّ﴾؛ أي: كلٌّ منَ الفرق المذكورين، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من هؤلاء وأولئك، أو ﴿وَكُلٌّ﴾ من آل فرعونَ وكفّار قريش[2]، والأولى الحملُ على العموم، وتنوين ﴿وَكُلٌّ﴾ للتّعميم؛ تعويضٌ عنِ المضاف إليه، أي: كلٌّ مَن تقدّمَ منَ المذكورين؛ أي: آل فرعون والّذين من قبلهم، ولذا جاءَ بعدَها ﴿كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ لتعدّدهم مراعاةً للفاصلة عند مَن يقولُ بذلك[3]، ولا شكّ أنّه عند التّحقيق فإنّ العلماءَ يرضون أن تكونَ مراعاةُ الفاصلةِ مقبولةً إن كانت تبعًا للمعاني المقصودة، فتزيدها حسنًا فوقَ حُسن، ومفعول ﴿ظَٰلِمِينَ﴾ محذوفٌ للتّعميم، فيدخلُ فيه ظلمُهم لأنفُسِهم، وظلمُهم لغيرهم.

مراعاة الفاصلة للمعاني المقصودةِ، يزيدها حُسنًا فوق حُسنها

بلاغةُ توكيدِ الحكمِ في الفاصلة بـ(كان)، والجملة الاسميّة:

(كلٌّ) مضافٌ إلى محذوفٍ يعمُّ حكمَ اللّهِ تعالى عليه بأنّه ظالمٌ، فوصف اللّهُ تعالى العصاةَ جميعًا بأنّهم ظالمون، فقال تعالى: ﴿وَكُلٌّ

ظلمُهم ثابتٌ دائمٌ أحاط بهم، فأغرقتهم أمواجه المتلاطمة

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/43.
(2) الآلوسيّ، روح المعاني: 10/31.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 5/338 - 339، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 10/46.

كَانُواْ ظَٰلِمِينَ﴾؛ أي: كلُّ الّذين كفروا برسل اللّهِ، وآياتِ ربِّهم كانوا ظالمين، وأكّدَ ذلك الحكمَ بـ(كان) الدّالّةِ على استمرار الظّلم، وبالجملة الاسميّةِ، وقد ظلموا أنبياءَهم بتكذيبهم مع أنَّ الحقَّ واضحٌ أبلجُ، وظلموا أنفسَهم؛ لأنّهم ارتضوا الضّلالةَ بدلَ الهداية، وظلموا المؤمنين؛ لأنّهم آذوهم، وسَخِروا منهم، وظلموهم؛ لأنّهم حاربوهم، وهم فاجرون في حربهم، وظلموهم؛ لأنّهم أشاعوا عنهم السّوءَ، وهكذا أحاطَ الظّلمُ بهم، والظّلمُ ظلماتٌ يومَ القيامةِ، واللّهُ مُنتقِمٌ جبّارٌ[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

الدّأب والسُّنّة:

الـدّأبُ وصفٌ لطريقة الكفّار في السّير، على نهج سابقيهم حتّى أُهلِكوا

ممّا يُلحَظُ في هذه الآيات مدار البحث أنّ آيتي الأنفال استَعملتا لفظةَ (الدّأب) الّتي وردَت أيضًا في سورة آل عمران بقوله: ﴿كَدَأۡبِ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمۡۗ وَٱللَّهُ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ ١١﴾ [آل عمران: 11]، وفي سورة يوسف بقوله: ﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلٗا مِّمَّا تَأۡكُلُونَ ٤٧﴾ [يوسف: 47]، وفي سورة إبراهيم: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ دَآئِبَيۡنِۖ وَسَخَّرَ لَكُمُ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ٣٣﴾ [إبراهيم: 33]؛ فيُلحظُ في استعمالاتها أنّها كانت وصفًا لحالاتٍ متتابعةٍ لا تتغيّر، فقد شبّه القرآنُ الكريمُ حالَ الكفّار بمَن يسيرُ على عادةِ مَن سبقه حذو القذّة بالقذّة دون خروج عن سننهم في الحياة، مع الثّبات في طريقة السّيرِ، واستعمل القرآنُ لفظةً أخرى مقاربةً للتّعبير عن مثل هذه الحالات؛ وهي لفظةُ (السُّنّة) في وصف عادات السّابقين، فقال: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤۡمِنُوٓاْ إِذۡ جَآءَهُمُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَسۡتَغۡفِرُواْ رَبَّهُمۡ إِلَّآ أَن تَأۡتِيَهُمۡ سُنَّةُ ٱلۡأَوَّلِينَ أَوۡ يَأۡتِيَهُمُ ٱلۡعَذَابُ قُبُلٗا ٥٥﴾ [الكهف: 55]، واستعملها مضافةً إلى الله على

(1) أبو زهرة، زهرة التّفاسير: 6/3166.

أنّها من قوانين الكونِ الكونيّةِ أو الاجتماعيّةِ، فقال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ [الأحزاب: 62].

فالسّنّة هي عادةٌ أيضًا مثلُ الدّأب، ولكنّها قد تكون قهريّةً، وقد تكون اختياريّةً، وقد تكون كونيّةً أو اجتماعيّةً، والدّأبُ لا يكونُ إلّا اختياريًّا من خلال الاستعمالاتِ الّتي ذكرها القرآنُ الكريمُ له، فظهر بهذا أنّ استعمالَ الدّأبِ في المواضعِ الّتي ورد فيها لا تسدُّ مَسدَّهُ كلمةُ (العادة) أو (السُّنّة).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 16 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-12-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 16 : المجلد السادس عشر، سورة الأنفال من الآية 27 إلى سورة التوبة الآية 22.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-768-12-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-9828150 بتاريخ 2024/01/18م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»